كثيراً من البرادي وغيرهم واطعمهم في الحصاد والغنيمة وسار حتى نزل بلطية فتسلمها وقوي بها وبما فيها من مال وغيره وقصد وردبس[٨] بن لاون فتراسلا واستقر الامر بينهما على ان تكون قسطنطينية وما جاورها من شمالي الخليج لوردبس وهذا الجانب من الخليج لورد وتحالفا واجتمعا فقبض وردبس على ورد وحبسهُ ثم انهُ ندم فاطلقهُ عن قريب وعبر وردبس الخليج وحصر القسطنطينية وبها المنكان ابنا ارماتوس وهما بسيل وقسطنطين وضيق عليها فراسلا ملك الروسية واستنجداهُ وزوجاهُ بنتاً لهما فامتنعت من تسليم نفسها الى من يخالفها في الدين فتنصر وكان هذا اول النصرانية بالروس وتزوجها وسار الى لقاء وردبس فاقتتلوا وتجاربوا فقتل وردبس واستقر المنكان في ملكهما وراسلا ورداً واقراه على ما بيده فبقي مدة مديدة ومات قيل انهُ مات مسموماً وتقدم بسيل في الملك وكان شجاعاً عادلاً حسن الرأي ودام ملكهُ وحارب البلغار خمساً وثلاثين سنة وظفر بهم واجلى كثيراً منهم عن بلادهم واسكنها الروم وكان كثير الاحسان الى المسلمين والميل اليهم »

انتهى كلام ابن الاثير وسنأتي في فرصة اخرى على خلاصة تاريخ عضد الدولة والامبراطور بسيل هذا وابيو وامهِ على التحقيق

باب المراسلة والمناظرة

قد رأينا بعد الاختبار وجوب فتح هذا الباب فتحناهُ ترغيباً في المعارف وانهاضاً للهمم وتشحيذاً للاذهان ، لكن العهدة في ما يدرج فيهِ على اصحابهِ فمتى برأت منهُ كلو ، ولا ندرج ما خرج عن موضوع المقتطف وغراضهِ سيما الادراج وعدمهِ ما يأتي : (١) المناظر والمظهر مشتقان من اصل واحد فمناظرك لمظهرك (٢) الغرض من المناظرة الوصول الى الحقائق ، فاذا كان كاشف الغطاء غيرهُ عظيماً كان المتصف بالملاطفة اعظم

(٣) خير الكلام ما قل ودل ، فالمقالات الوافية بالمرام قصاراها ان تطالع

المكاحل والمدافع

سيدي المحترمين

بعد التحية قرأت مقال المقتطف عن المدافع وافعالها وقد ذكرتم فيهِ ما ورد عن المدافع في الكتب العربية ومنها تاريخ ابن اياس وقد ترددتم فيما ذكرهُ عن حوادث سنة ٧٥٣ هـ واني ارسل الى جنابكم نبذة وردت في كتاب صبح الاعشى للقلقشندي في الصفحة

١٣٧ من الجزء الثاني قال « ومنها (آلات الحصار) مكاحل البارود وهي المدافع التي يرمى عنها بالنفط . وحالها مختلف : فبعضها يرمى عنهُ بسهام عظام تكاد تخرق الحجر . وبعضها يرمى عنهُ ببندق من حديد من زنة عشرة ارطال بالمصري الى ما يزيد على مائة رطل . وقد رأيت بالاسكندرية في الدولة الاشرفية شعبان بن حسين (٧٦٤ — ٧٧٨) في نيابة الامير صلاح الدين بن شرام رحمهُ الله بها مدفعاً قد صنع من نحاس ورصاص وقيد باطراف الحديد رُمي عنهُ من الميدان ببندقة من حديد عظيمة محماة فوقعت في بحر السلسلة خارج باب البحر وهي مسافة بعيدة »

ولعل هذه الجملة تكون مزيلة للتردد فانها مبينة ان المراد بما ذكر مدافع لا بنادق بدليل صنعها من النحاس والرصاص وثقل البندقة التي تقذفها حتى تصل الى مائة رطل بالمصري وتقييد المدفع باطراف الحديد حين اطلاقهِ ولجنابكم النظر الاعلى والسلام

محمد الخضري

وكيل مدرسة القضاء الشرعي

[المقتطف] ان ما ذكرهُ القلقشندي ونقلتموهُ عنهُ صريح في ان كلة مدفع كانت في عصره مرادفة لكلة مكحلة وانهُ يراد بالمدفع ما يدفع بهِ جسم ثقيل نشكركم على ذلك ويبقى امر آخر وهو الاستدلال على اول زمن استعمل فيهِ البارود لدفع هذه الاجسام الثقيلة لان الحجارة الكبيرة ونحوها كانت تدفع قبلاً بغير البارود

المدافع والمكاحل

عند العرب

نقلتم في مقالة (المدافع والمقاذف) في مقتطف الشهر الماضي شيئاً مما ذكرهُ ابن اياس عن المكاحل والمدافع ومنهُ قولهُ في حوادث سنة ٧٥٣ « ان نائب قلعة دمشق حصّن القلعة تحصيناً عظيماً وركّب عليها المكاحل بالمدافع » ثم علّقتم عليهِ بقولكم « وقد ورد ذكر المكاحل والمدافع هنا على اسلوب غريب فيحتمل ان يكون نائب قلعة دمشق وضع فيها مدافع معدنية تحشى بالبارود فيكون استعمال المدافع قديماً في البلدان الغربية . ويحتمل ان يكون المراد بقولهِ المكاحل بالمدافع البنادق القديمة التي استعملت قبل المدافع الكبيرة فانها كانت اثقل من ان تحمل باليد »

قلنا لا شك في ان اسلوب العبارة لا يخلو من غرابة وغموض غير ان من تتبع كلام المؤلف في غير هذا الموضع انكشف له ما لبهم في عبارته هنا ولتوضيح ذلك نقول

اورد المؤلف لفظ المكاحل مقرونة بالمدافع في عدة مواضع من تاريخه منها قوله في ج ١ ص ٣٢٦ « اضطربت احوال مدينة حلب وحصنوا سورها بالمدافع والمكاحل » وفي ج ٣ ص ٧٧ « المراكب التي كان ارسلها السلطان الغوري قد غرقت بما فيها من مكاحل ومدافع وآلات السلاح » وفي ص ١٦٠ من هذا الجزء « وحصن الابراج التي بها وركب عليها المكاحل وشرع في عمل عجلات وعمل مكاحل ومدافع » . وربما سبق الى الذهن بادئ الرأي انهُ يريد بالمدافع ما هو معروف وبالمكاحل ما نسميه اليوم بالبنادق ولكن الذي ظهر لي من تتبع عباراته انَّ مرادهُ بالمكاحل المدافع المعروفة وبالمدافع انكرات المقذوفة منها التي جرى الكتاب اليوم على تسميتها بالقنابل والدليل على ذلك قولهُ في ج ٢ ص ١٨٩ « وجعل حول هذا البرج مكاحل معمرة ليلاً ونهاراً » وفي ص ٣٨٣ « في اليوم الثالث من المحاصرة ملك قصروه مدرسة السلطان حسن وركب المكاحل المعمرة بالمدافع » وفي ص ٣٢٦ « ثم انهم رموا بالمكحلة المسماة بالمجنونة على من في مدرسة السلطان حسن فخرق المدفع شباك المدرسة ودخل فقتل ثلاثة انفار من المماليك » . ولم نقف على ضبط لفظ المدفع عندهم اهو بكسر اوله على وزان اسماء الآلات ام بفتحهِ على وزان اسماء المواضع وسواء كان بهذا او بذاك فلا يخفى ما في اطلاقهِ على الكرة من الخطأ من الوجهة اللغوية

اما المادة التي كانت تتخذ منها هذه المكاحل فقد صرح ابن اياس انهم كانوا يسبكونها من الحديد او النحاس ويتخذون كراتها من الحجر فقال في ج ٣ ص ٩ « وفيهِ ارسل السلطان مكاحل حديد ومدافع وصوانا الى ثغر الاسكندرية وسافرت في المراكب الى هناك فكانت نحو مائتي مكحلة » وفي ج ٢ ص ٣٢٤ « واحضر عدة قناطير نحاس وشرع في سبك مكحلتين كبار » وفي ج ٣ ص ١٢٤ « جمعوا الناس ليحضروا المكاحل النحاس الكبار التي كانت بالقلعة » الى ان قال « ثم عقيب ذلك نزلوا بالمكاحل من القلعة وصاروا يربطون الرجال بالحبال في رقابهم ويسوقونهم بالضرب الشديد على ظهورهم » وفي ص ٢٦٥ من هذا الجزء « وكان بهِ ست عجلات تحملها الاكاديش وعليها عدة مكاحل نحاس ومدافع حجر » وفي ص ٣٢٩ من الجزء الثاني « وكان دميلكو قد فرغ من المكحلة وركبها ورمى بها اول حجر فكسر باب السلسلة »

وقد ذكر ابو ذر المشهور بسبط ابن العجمي المتوفى سنة ٨٨٤ هـ اتخاذ الكرات من

الحجر ايضاً في كتابه كنوز الذهب في تاريخ حلب وهو كتاب مخطوط عندنا فقال « اخذ ثغرى برمش كافل حلب من اسمها بدلالة ابن الخصوفي مباشرة فجعلها احجاراً للمكحلة التي عملها ليرمي بها على القلعة » وقال في موضع آخر « ترمي عليهم اهل القلعة بالمكحلة فاثرت احجار المكحلة بحائط المدرسة » وقال ايضاً « وحاصروا القلعة المذكورة اثنين وعشرين يوماً وعملوا مكحلة عظيمة ترمي بقنطار حلبي واكثر »

على ان ابن اياس قال في ج ٣ ص ١٤٤ « وخرج صحبتهُ جماعة كثيرة من العثمانية ومعهم مكاحل نحاس ومدافع نحاس وتجل » ولم يذكر المدافع النحاس اي الكرات في غير هذا الموضع وربما توهم منهُ ان اتخاذها من سوى الحجر كان خاصاً بالعثمانيين غير معروف عند المصريين مع ان الواقع خلافهُ كما سنبينهُ

بقي هنا قولهُ في ج ٣ ص ١٥٤ « فنزل من القلعة وقدامهُ من الانكشارية نحو ثلاثمائة انسان وهم مشاة وبايديهم المكاحل » ولا ريب في ان المراد بها هنا البنادق لا المدافع والظاهر ان المكحلة كانت تطلق على كليهما كما هو معروف الى اليوم عند المغاربة فانهم ما زالوا يسمون المدفع بالمكحلة الكبيرة والبندقية بالمكحلة الصغيرة . وقد سمّى ابن اياس المصغيرة بالبندقية ايضاً فقال في ج ٢ ص ٣١٠ « ووقف عند سبيل المؤمنين فرموا عليهِ بعض الرماة بكفية وقيل ببندقية فجاءت على طرق اذنهِ جواز » وفي ج ٣ ص ٥٥ « وفيهِ اهتم الامير الدوادار بعمل طوارق خشب وكفيات وبندقيات وغير ذلك من آلات الحرب » والمراد بالكفية ما يسمّى اليوم بالطبنجة على ما ظهر لي من مواضع في هذا الكتاب فذكر البندقيات معها يؤيد انهُ يريد بها المكاحل الصغيرة

اما قولهُ في ج ٣ ص ٢١٢ « فجمعوا على سوق النحاسين واخذوا ما فيهِ من النحاس لاجل ان يسكوهُ مكاحل لبندق الرصاص » فالارجح ان المراد هنا البنادق ايضاً اذ المشهور في كرات المدافع انها لا تتخذ من الرصاص ولولا ذلك لاحتمل انهُ يريد بالمكاحل المدافع وبالبندق كراتها لانهم كانوا يسمونها بذلك وقد صرّح بهِ القلقشندي في صبح الاعشى وسمّى المكاحل الكبيرة بالمدافع فقال في ذكر آلات الحصار « ومنها مكاحل البارود وهي المدافع التي يرمي عنها بالنفط وحالها مختلف فبعضها يرمى عنها بسهم عظام تكاد تخرق الحجر وبعضها يرمى عنهُ ببندق من حديد من زنة عشرة ارطال بالمصري الى ما يزيد على مائة رطل وقد رأيت بالاسكندرية في الدولة الاشرفية شعبان بن حسين في نيابة الامير صلاح الدين بن عرام رحمهُ الله بها مدفعاً قد صنع من نحاس ورصاص وقيّد بأطراف الحديد ورمي

عنهُ من الميدان بسندقة من حديد عظيمة محمية نوقدت في بحر السلسلة خارج باب البحر وهي مسافة بعيدة »

فيستخلص مما تقدم ان الكرة كانوا يسمونها بالمدفع وبالسندقة ولا يخفى ما في كلتا التسميتين من البعد وان المكاحل كانت تطلق على المدافع والبنادق ولا نذكر ان ابن اياس ذكر المدفع بما هو معروف اليوم الاَّ في موضعين من تاريخهِ احدهما قولهُ في ج ٢ ص ٤ « فلما وصل الى دمشق وجد نوروز قد حصن دمشق وركب على سورها المدافع في كل جانب » والثاني في زجل للشيخ بدر الدين اوردهُ في ج ٣ ص ٦٦ يقول فيهِ

والامارة تحكي شجر ثمرْ في رياض تشرّو غدا عاطرْ
والمدافع ترمي صفرجلْ كبارْ والاَّ رمانْ يحكي الفحول فاخرْ

ويستخلص ايضاً ان استعمال المدافع في البلاد العربية لم يكن قبل التاريخ الذي ذكروهُ نقلاً عن ابن اياس وهو سنة ٧٥٣ هـ والراجح انها استعملت فيها قبل ذلك فقد جاء في الاحاطة في وصف حصار قام بهِ خليفة غرناطة اسماعيل بن فرج سنة ٧٢٤ ما نصهُ « ونازل حصن اشكر الشجا المعترض في حلق بسطة فاخذ بخنقهِ ونشر الحرب عليهِ ورمى بالآلة العظمى المتخذة بالنفط كرة حديد مجاة طاق البرج المنيع من معقلهِ فاندفعت يتطاير شررها واستقرت بين محصور به فعاثت عياث الصواعق السماوية » وان كان ذلك لا يفيدنا فائدة تذكر في قدم التاريخ زيادة عما في ابن اياس . وذكر ابن خلدون « المجانيق والعرّادات وهدام النفط القاذف بحصى الحديد ينبعث من خزنة امام النار الموقدة في البارود بطبيعة غريبة » وذلك في حصار ابي يوسف المجلاسة سنة ٦٧٢ هـ وقد استظهر دوزي في معجمهِ ان مرادهُ بالمقدام هنا المدفع فان صح ما ظهر لهُ وهو المرجح عندنا ثبت ان استعمال العرب للمدافع كان اقدم مما ذكرهُ ابن اياس بنحو قرن

ومما ينبغي ان يُتنبَّه لهُ ما جاء في سيرة صلاح الدين الايوبي لابن شدّاد المسماة بالنوادر السلطانية وهو قولهُ في ص ٨ من طبعة مصر « فتواصلت الاخبار بقوة عزمهم على الصعود الى المقدس ومحاصرتهِ وتركيب القنابل عليهِ » فانهُ ان كان يريد بالقنابل كرات المدافع ففيهِ دلالة على استعمالها في الحروب الصليبية الاولى وهو ما نستبعدهُ ولنا على استبعادهِ ادلة منها انهُ قول لا يعضدهُ نقل آخر ولم يجرهُ ذكر في غير هذا الكتاب ومنها ان المؤلف وصف طرق المقاتلة بعد ذلك وذكر آلاتها فشرح امر الدبّابات والايراج وما كان يلقيهِ الزرّاقون من قوارير النفط ولم يسمّ بالقنابل اذ المعلوم عن القوارير انها شيء آخر غير كرات المدافع .

ومنها ان لفظ القنابل شيء لهجوا به في عصرنا هذا ولم نجد مستعملاً قبلهُ واما يذكرون القنابل على انها جمع قنبلة بالفتح للطائفة من الناس والخيل انما القُنبلة بالضم لكرة المدفع فمحرّفة عن قُنبرة وقد استعملها الجبرتي في تاريخهِ باثراء وصاحب سلك الدرر في ترجمة محمد بك ابي الذهب حيث قال « ونصب لها الاطواب من المرج الاخضر وضربها بالقنابر فصارت تنزل القنابر على اهل البلد » وجاء في حاشية هذا الكتاب انها محرّفة عن قنبرة وهذه عن خمبرة الفارسية قلنا وقد اقتبس الاتراك الخمبرة وادمجوها في لغتهم واوردها سامي بك في معجمهِ ولكنهُ لم ينبه على فارسيتها وجاءت في الدرر المختبات المنثورة في اصلاح الغلطات المشهورة للولى الحميد من علماء القرن الثالث عشر الهجري بلفظ قومبرة قال وهي محرّفة عن خمبرة الفارسية . فيعلم من كل ذلك انها لفظة حديثة الدخول في العربية تتوالى عليها اربعة تغييرات قبل ان تصلنا فاين في اذن من عصر ابن شداد . ومنها ان هذه الكلمة وردت في نسخة ابن شداد المطبوعة باوربا سنة ١٧٣٢ م بلفظ « تركيب القتال عليها » والظاهر ان مصحح النسخة المصرية رأى ما في العبارة من القلق فغيّر القتال بالقنابل جرياً على ما هو شائع على الالسنة الآن ولو انهُ غير التركيب بالترتيب لاستقام المعنى وخلّصنا من هذا الاشكال

بقيت لنا كلمة فيما ذكرتموهُ عن لفظ Mangonneau فذهبنا فيهِ ان كان مقتبساً من احدى اللغتين للاخرى انهُ عربي الاصل لان العرب انما استعاروا المكحلة للمدفع والبندقية لوجود الشبه بينهما وبين قارورة الكحل في الصورة كما ان البندقية كانت تحشى قديماً من قمها بالمدك فكان لها كالمرود للمكحلة . هذا على القول بتفرّع احد اللفظين عن الآخر ولا يخفى ان الاقرب في اللفظ الفرنسي ان يكون مأخوذاً من المنجنيق على ما ذهب اليهِ صديقنا العالم المحقق احمد زكي باشا في مقالة (آثار العرب الخالدة باوربا) والله اعلم

احمد تيمور

[المقتطف] نشكر حضرة العالم المحقق احمد بك تيمور على ما تحفنا بهِ من البيان الوافي . وبعدُ فان كلام القلقشندي المذكور آنفاً صريح في ان المدافع هي المكاحل نفسها لا القنابل وقد ذكر ذلك قبل الزمن الذي ذكر فيهِ ابن اياس المكاحل المعبّرة بالمدافع باكثر من مئة سنة . ولكن يظهر من النسخ المطبوعة التي بين ايدينا من ابن اياس والقلقشندي ان الكلام عن المدافع مضطرب كأنَّ فيهِ شيئاً مقحماً من النسّاخ الأ بيت الشيخ بدر الدين فانهُ يسهل تخريجهُ لجعل المدافع قنابل . وسنعود الى هذا الموضوع . وحبذا لو عثر احد الباحثين على نسخة قديمة من هذين الكتابين او من غيرهما تزيل هذا الالتباس